

# الأساس الاجتماعي للعلم والمعرفة

## في فكر ابن خلدون

د. سعد إبراهيم العلوي (\*)

### ملخص البحث:

هدف هذا البحث إلى الكشف عن التحليل والتشخيص اللذين قدمهما المفكر العربي الإسلامي عبد الرحمن ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) لموضوع العلم والمعرفة، وإدراكه الأولى للأساس الاجتماعي الذي يحتضن تبلورهما وتطورهما، وتبيان أصالة الرؤية والمعالجة الخلدونية للمعرفة، وإبراز تميزها وتمايزها عن تلك الرؤية المستندة إلى الموروث الفلسفي اليوناني .

ولتحقيق هذا الهدف قام الباحث بالتوقف أمام السياق الذاتي (تجربة ابن خلدون الشخصية) والسياق الموضوعي (أوضاع المجتمع العربي الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي)، وأوضح طبيعة دورهما في اهتمام ابن خلدون بمسألة العمران، وتأسيسه لعلم جديد، هو علم العمران البشري .

وقد أظهر البحث أن التحليل والتشخيص الخلدونيين للعلم والمعرفة يستندان إلى دور الأسس الاجتماعية التي تؤثر في اتجاهاتهما ونوعهما، وأن المعرفة حصيلة النظم الاجتماعية القائمة التي تؤثر وتتأثر بها، وبالتالي تتراكم تجانساً مع مستوى العمران، وتقل حيث تتناقض معه .

(\*) أستاذ علم اجتماع المعرفة المساعد - كلية التربية - جامعة صنعاء.

كما بينت نتائج البحث أن ابن خلدون كان قد عالج موضوع العلم والمعرفة بصفتهما نشاطاً في العمران، أي نشاطاً اجتماعياً، وأنهما مجموعة من المعارف المنظمة اجتماعياً، وهذا ما جعل الرؤية والمعالجة الخلدونية تتميزان وتتمايزان عن النظرة المستندة على الموروث الفلسفي اليوناني التي لم تستطع البحث عن تفسير للمعرفة إلا من خلال المعرفة بحد ذاتها، في حين أن ابن خلدون قد بسط جسراً بين المعرفة والمجتمع. فالمجتمع عنده هو العنصر المحرك الأولي، إنه الشرارة التي تولد الحركة في آلة المعرفة .

وقد أوصى الباحث بضرورة استكمال البحث في موضوع التحليل الخلدوني لقضية العلم والمعرفة، حيث إنه لا يزال بحاجة إلى مزيد من القراءة والتحليل .

كما أن هناك الكثير من الإمكانيات التفسيرية والتحليلية التي تمتلكها المفاهيم الخلدونية لدراسة الإشكاليات والقضايا التاريخية والاجتماعية والثقافية المتصلة بالمجتمع العربي الإسلامي ماضياً وحاضراً .

المقدمة :

## \*موضوع البحث :

إن الاهتمام بقضية المعرفة وما نثره من تساؤلات تدور حول إمكانية المعرفة، وحدودها، ومصادرها، وطبيعتها، كان شغلاً شاغلاً للفلاسفة منذ عهد الفلسفة اليونانية وحتى وقتنا الحاضر<sup>(1)</sup> .

أما دوافع المعرفة، وحوافزها والأطر الاجتماعية التي تحتضن تبلورها، والمسببات المباشرة لها، فلم تكن تدخل التحليل الفلسفي التقليدي لمفهوم المعرفة. ولقد اصطدم مفهوم المعرفة الذي روّجت له الفلسفة والقائم على النظرة التأملية - بالعلوم الاجتماعية الحديثة (علم الاجتماع، وعلم النفس،

والاقتصاد)، الأمر الذي أدى إلى ظهور مفهوم جديد للمعرفة ، يقوم على أساس نسبية المعرفة واجتماعيتها<sup>(1)</sup>؛ مما مهد الطريق أمام نشأة فرع متخصص من علم الاجتماع هو علم اجتماع المعرفة، وهو علم يُعنى بدراسة العلاقة بين المعرفة بأنواعها المختلفة وبين السياق الاجتماعي والثقافي الذي تمخضت عنه، وتحليل هذه العلاقة، وينظر إلى المعرفة على أساس أنها تبنى وتُشيد على نحو اجتماعي، وتتحرك في أشكالها وأنواعها طبقاً لتحركات البنية الاجتماعية.

ومن المعروف أن محاولة دراسة العلاقة بين المعرفة والمجتمع، محاولة قديمة وذات تاريخ طويل، ولا ترتبط أساساً بالفكر الأوروبي الحديث كما تذهب إلى ذلك بعض الدراسات. فلقد حاول المفكر العربي والإسلامي عبد الرحمن ابن خلدون مقارنة الموضوع، حيث بسط جسراً بين المعرفة والمجتمع، وذلك هو موضوع البحث .

#### \* أهمية البحث :

تتضح أهمية هذا البحث بالنظر إلى الحقيقة التي مؤداها أن الدراسات التي أجريت حول الفكر الخلدوني، على كثرتها، قد خلت - إلا في القليل النادر - من التحليلات المنظمة لموقف هذا الفكر من قضية المعرفة، انطلاقاً من دراسة العلاقة بين تطور المعرفة وتطور العمران، وفي إطار نظرية العمران البشري.

وإذا كان بحثنا هذا يعالج قضية لم تحظ بمثل ما حظيت به قضايا الفكر الخلدوني الأخرى من اهتمام من جانب الباحثين، فإننا نأمل أن تمثل معالجتنا هذه إسهاماً في تحقيق المزيد من الفهم لرؤية ابن خلدون للمعرفة والعلوم، ولمقارنته لأنواعها ومسائل تطورها، انطلاقاً من تطور المجتمع وطبيعة العمران.

## • أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن التحليل والتشخيص اللذين قدمهما عبد الرحمن ابن خلدون لقضية المعرفة، وإدراكه الأولى للأساس الاجتماعي الذي يحتضن تبلورها وتطورها .

كما يهدف البحث أيضاً إلى تبيان أصالة الرؤية والمعالجة الخلدونية لقضية المعرفة، وإبراز تمايزهما وتميزهما عن تلك النظرة المستندة إلى الموروث الفلسفي اليوناني .

## • منهج البحث :

إن طبيعة الموضوع الذي يتناوله هذا البحث يفرض علينا تبني المنهج التاريخي، أحد المناهج الرئيسية في علم اجتماع المعرفة، بالإضافة إلى المنهج المقارن، منطلقين من مبدأ ملاءمة المنهج المذكور لطبيعة البحث. ولتحقيق الهدف منه سوف تكون قراءتنا لنصوص من "المقدمة" هي مرجعنا الأساسي الذي نستضيء به للبحث في القضية موضع النظر .

## • مشكلة البحث :

نادراً ما وقف الباحثون أمام طبيعة المعالجة الخلدونية لقضية المعرفة من منظور علاقتها بالأطر الاجتماعية وارتباطها بها كمحفز ودافع لتبلورها وتطورها. وهذه الدراسة تحاول الكشف عن تلك المعالجة النظرية وتبيان أهميتها وأصالتها وأسبقيتها الزمنية .

## • تساؤلات البحث :

- ما دور كل من السياق الذاتي (التجربة الشخصية) والسياق الموضوعي (الإطار الحضاري) في نشأة الفكر الخلدوني ؟

- ما معنى العمران؟ وما هو موضوع علم العمران؟ وما الطابع الوظيفي المعرفي لهذا العلم؟ وفيما يكمن اختلافه المعرفي عن بقية العلوم في عصر ابن خلدون؟

- ما موقع العلوم والمعارف من تطور العمران البشري؟ وما دور النظم الاجتماعية في نشأة العلوم وتطورها وفقاً للرؤية والمعالجة الخلدونية؟

- ما أوجه الاختلاف بين الرؤية والمعالجة الخلدونية لقضية المعرفة، وتلك النظرة المستندة إلى الموروث الفلسفي اليوناني؟

### **أولاً : السياق الذاتي والموضوعي ودورهما في نشأة الفكر الخلدوني :**

يشكل فكر ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) نقلة نوعية على صعيد تطور الفكر العربي الإسلامي . فلقد عمل ابن خلدون على نقل هذا الفكر من عملية القراءة التأملية لأحداث الاجتماع الإنساني وقواعده، إلى تملك ذلك الاجتماع عبر إنتاج أدوات فهمه النظرية، وتلك هي القوانين التي اكتشفها ابن خلدون، أي العوامل المحركة للتطور التاريخي والاجتماعي على سبيل المثال لا الحصر (قانون العصبية، وقانون المطابقة، ومبدأ العلية والسببية، والمفهوم الدوري لحركة المجتمع والدولة).

ومن هنا اكتسب الفكر الخلدوني أهميته مقارنة بالفكر السابق له، وشكلت "المقدمة" الإطار النظري والمنهجي الذي استطاع من خلالها ابن خلدون قراءة التاريخ الاجتماعي العربي الإسلامي وتحليله ودراسته .

إن هذه المكانة التي اكتسبها ويكتسبها ابن خلدون جعلته محط اهتمام المستشرقين الأوروبيين والباحثين العرب ، الأمر الذي أدى الى تراكم تراث معرفي ضخم حول فكر ابن خلدون، يتوزع بين أبحاث ومقالات ودراسات

تغطي حقولاً معرفية مختلفة: اجتماعية وسياسية وتاريخية واقتصادية وتربوية<sup>(١)</sup>.

إن نظرية ابن خلدون حول العمران ليست نتاجاً لعبقرية منفردة أو ظهرت دون جذور، ولكنها ثمرة لتضافر عاملين أولهما: التجربة الشخصية أى الظروف الذاتية الخاصة بشخص ابن خلدون. وثانيهما: الظروف الموضوعية السياسية والاجتماعية والثقافية المتعلقة بالعصر الذى عاش فيه، أى القرن الرابع عشر الميلادى.

(أ) السياق الذاتى :

عبد الرحمن ابن خلدون مغربى الميلاد والنشأة، ولد فى تونس سنة ٧٣٢هـ - ١٣٣٢م، وينتمى إلى عائلة يمتية حضرمية من جنوب الجزيرة العربية، وقد تمتعت هذه العائلة بنفوذ سياسى واقتصادى كبير فى عهد الدولة الحفصية، وتبوأ معظم رجالاتها مناصب كبيرة<sup>(٢)</sup>.

حفظ ابن خلدون القرآن الكريم، ودرس علومه كما درس الحديث الشريف والفقہ والأصول واللغة والأدب والتاريخ، وأضاف إلى ذلك كله دراسة المنطق والفلسفة والرياضيات<sup>(٣)</sup>.

وفى سن مبكرة بدأ يدخل الحياة العملية ولم يكن قد بلغ الثامنة عشرة من سنه حتى عينه سلطان تونس فى منصب (كاتب العلامة)، ثم ترك تونس بعد اضطراب الموقف فيها واتجه إلى المغرب، وهناك جذبت شخصيته أنظار السلطان المرينى فعينه فى منصب كاتب السر، ثم قلده خطة المظالم ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره.

ثم ارتحل بعض الوقت إلى الأندلس، وهناك التحق بخدمة السلطان محمد ابن الأحمر الذى أرسله سفيراً إلى أمير قشتالة، ونجح فى عقد صلح بينهما بعد صراعات وحروب شهدتها الإماراتان<sup>(١)</sup> .

وفى الخامسة والأربعين اعتزل الحياة العامة وأوى إلى أحد قصور بنى عريف فى قلعة ابن سلامة وظل بها أربعة أعوام وأنجز فيها كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر". وعن ذلك يقول: " فأقمت بها - يقصد قلعة ابن سلامة - أربعة أعوام متخلياً عن الشواغل كلها، وشرعت أضع هذا الكتاب وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على هذا النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الفترة، فسالت فيها شأبيب الكلام والمعانى على الفكر، حتى امتحضت زبدتها وتألقت نتائجها"<sup>(٢)</sup> . وبعدها ارتحل إلى مصر ووصل القاهرة سنة ٧٨٤هـ ولم يكد يمضى فيها عامين حتى عين قاضياً للقضاة على المذهب المالكي، وتوفى فى القاهرة سنة ٤٠٦م .

#### (ب) الإطار الحضارى للفكر الخلدونى :

عاش ابن خلدون فى عصر تميز بالتفكك والانهييار والجمود الذى طالبنى السياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع العربى الإسلامى. ذلك هو القرن الرابع عشر الميلادى الذى شهد الصراعات السياسية وثورات القصور وتمردات الجماعات القبلية<sup>(٣)</sup>، وحالات الانقسام السياسى للدول الكبيرة وتفتتها لدويلات متناحرة كما هو الحال مع دولة الموحدين التى حكمت المغرب العربى .

فى ظل واقع سياسى تميز بالصراع والانقسام، يجاوره واقع ثقافى وفكرى يعيش الجمود والانغلاق بعد أن انطفأ الوهج الأخير للعقلانية العربية الإسلامية والذى عبرت عنه الفلسفة الرشدية<sup>(٤)</sup> - تأتى الكوارث الطبيعية (الطاعون الجارف) لتقضى على البقية الباقية من الهياكل الاجتماعية



والاقتصادية والسياسية للمجتمع العربي الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي، " فلقد انقلبت أحوال المغرب وتبدلت بالجملة. هذا إلى جانب ما أنزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، وانقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن... فاحتاج هذا العهد لمن يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها...".<sup>(1)</sup>

لقد تضافر كل من السياق الذاتي، أي تجربة ابن خلدون الشخصية، والسياق الموضوعي، أي أوضاع المجتمع العربي الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي - في نشأة الفكر الخلدوني. فالسياق الذاتي المتمثل بالتجربة السياسية التي خاضها ابن خلدون مبكراً، وما رافقها من صراعات ودماس أقامته في كنف بعض القبائل - راکمت لديه معرفة تجريبية لحركة المجتمعات، ونوع الأزمات التي تعصف بها. كما كان للوظائف السياسية والإدارية الدور الأكبر في تمتع ابن خلدون بخبرة عميقة في أمور الحياة عموماً.

في حين شكلت مظاهر التفكك والصراع السياسي والاجتماعي التي شهدتها المجتمع العربي الإسلامي في القرن الرابع عشر الميلادي، دافعاً لابن خلدون للبحث عن إجابات لأسئلة التفكك والانهيار، فكان البحث في العمران البشري والاجتماع الإنساني محاولة خلدونية لتفسير ذلك الواقع الاجتماعي والسياسي وتحليله، بمظاهره ونظمه المختلفة، وتولت نظرية العمران البشري تلك المهمة .



## ثانياً: نظرية العمران البشرى:

إن العلم لا ينبى كعلم مميز إلا فى إطار نظرية، فالوجود العلمى لموضوع العلم هو وجوده النظرى، أى وجوده فى نظرية متكاملة<sup>(١١)</sup>.

ومن هنا فإن الأسئلة التى تتبادر فى هذا السياق هى كالتالى: ما موضوع علم العمران ومعناه؟ ما العناصر الأساسية التى تشكل نظرية العمران البشرى؟ وما المجال المعرفى لتلك النظرية؟ وما أوجه التمايز فى نمط العمران البشرى؟

(أ) معنى العمران :

تحمل كلمة "عمران" عند ابن خلدون معنى المجتمع الإنسانى، الذى يعد ضرورة لا غنى عنها للنوع الإنسانى وإلا لم يكمل وجودهم. ومنذ المقدمة الأولى يعرض ابن خلدون الأسباب التى تجعل حياة الإنسان فى المجتمع ضرورية، (فلا بد من اجتماع القدرات الكثيرة من أبناء جنسه، ولا بد من التعاون بينهم لتحصل الكفاية من الطعام، وليس تحصيل الطعام وحده ما يقتضى الاجتماع الإنسانى، فالأمر الآخر - وهو صناعة السلاح، أى الأدوات التى يدافع بها الإنسان عن نفسه يقتضى أيضاً التعاون والاجتماع)، " وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له - أى الإنسان - قوت ولا غذاء ولا تتم حياته لما ركبته الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء فى حياته، ولا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات، ويعاجله الهلاك على مدى حياته، ويبطل نوع البشر".<sup>(١٢)</sup>

إذاً فالاجتماع يعد شرطاً رئيسياً لوجود العمران أو المجتمع الإنسانى، وإلا فإن الفناء مصير النوع البشرى، فبدون الاجتماع " يبطل نوع البشر" كما يشير إلى ذلك ابن خلدون نفسه.

إن العمران عند ابن خلدون اصطلاح قرآنى صريح وقيمة إسلامية واضحة<sup>(١٣٢)</sup>. والنصور الخلدونى لمعنى العمران نتاج بنية فكرية ومعرفية، وهى بنية الفكر الإسلامى. وما مفهومه للعمران سوى اجتهاد نظرى فى إطار بنية ذلك الفكر وثوابته .

وإذا كان التفكير النظرى فى أسس المجتمع يذكر عادة بشيئين: الأصل فى وجود المجتمع أو إيجاده، والغاية من هذا الوجود أو الإيجاد، فإن ذهن المفكر الإسلامى يتجه فيما يتعلق بهذا الأصل وهذه الغاية، إلى مفهوم الاستخلاف. فالناس مجرد مستخلفين من الله تعالى فى الأرض، عليهم أن يدبروا عمارتها وفقاً لأمره وشرعه، وإلا كان مجتمعهم فاسداً، فكل مجتمع لا بد وأن يكون أساسه القيمى دينياً<sup>(١٣٣)</sup>

من هنا فإن الرؤية الخلدونية للعمران تنطلق من منظور علاقة خلق تقيمها بين خالق وخلق، وترد الأسباب إلى خالقها، " فهذا الاجتماع ضرورى للنوع الإنسانى، وإلا لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إياهم، وهذا هو معنى العمران الذى جعلناه موضوعاً لهذا العلم"<sup>(١٣٤)</sup>.

#### (ب) فى مفهوم علم العمران :

فى تعريفه لعلم العمران يؤكد ابن خلدون على استقلالية هذا العلم، وكأن هذا علم مستقل بنفسه"، وتحديد موضوعه هو " العمران البشرى والاجتماع الإنسانى"، والهدف المعرفى المتأتى من إنشائه هو" بيان ما يلحق ذلك الاجتماع الإنسانى من العوارض والأحوال".

إن التأكيد على تحديد موضوع العلم ، وتبيان المسائل والقضايا التى بنوى معالجتها، يعد فى نظر ابن خلدون شرطاً علمياً ومعرفياً لتحديد معنى العلم، " وهذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً"<sup>(١٣٥)</sup>.

ولا يكتفى ابن خلدون بتحديد موضوع علم العمران وتبيان المسائل والظواهر التي يعالجها، لكنه يشير إلى طابع الاختلاف المعرفي بين العلم الذي قام بتأسيسه وبين بقية العلوم الأخرى، فهو - أى علم العمران - ليس من علم الخطابة، فهذا وظيفته الأقوال النافعة فى استمالة الجمهور إلى رأى أو صدهم عنه، كما أنه " ليس من علم السياسة المدنية "، إذ إن وظيفة هذا العلم " تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة، ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه".

ومن هنا يصل ابن خلدون إلى استنتاج مفاده أن موضوع علم العمران " قد خالف موضوع هذين الفنين "، وبهذا يكون علم العمران كما أشار ابن خلدون بقوله: هو " علم مستتبط النشأة ". ويضيف قائلاً: " ولعمري لم أقف على الكلام فى منحاها لأحد من الخليقة ".

إن الوظيفة المعرفية لعلم العمران كما يحددها ابن خلدون تكمن فى البحث فى العوارض الذاتية المصاحبة للعمران البشرى، أى الظواهر الاجتماعية مثل: الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب"، وقد قاده البحث فى تلك الظواهرات إلى تأسيس نظرية عامة فى العمران البشرى موضوعها المجتمع بنظمه وظواهره وأنماطه العمرانية .

#### (ج) أنماط العمران :

إن تحليل ابن خلدون للأسس التى يقوم عليها الاختلاف والتباين فى العمران يستند على عامل تحصيل المعاش ونوعه، وفى هذا يقول ابن خلدون: " اعلم أن اختلاف الأجيال إنما هو باختلاف نحلهم من المعاش ". وفى ضوء أسلوب تحصيل المعاش يفرق ابن خلدون بين نمطين من العمران هما العمران البدوى والعمران الحضرى . وفى وصفه للعمران أو للمجتمع البدوى يقول

ابن خلدون: " فمنهم من يستعمل الفلح من الفراسة والزراعة، ومنهم من يتحمل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والسدود لنتاجها، واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة - ولا بد - إلى البدو لأنه متسع لما لا تتسع له الحواضر من المزارع والقدن والمسارح والحيوان، وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء البدو أمراً ضرورياً، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والسكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة " (١٧) .

وإذا كان تحصيل المعاش في المجتمع البدوي بالمقدار الذي يحفظ الحياة، فإنه نظراً لتطور أساليب العيش واتساع أحواله المتأتية من تنوع أساليب تحصيل المعاش - يحدث التغيير والتحويل في نمط العمران. وهنا يجري الحديث عن العمران الحضري حيث يقول ابن خلدون: " ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المنتحلين من المعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة، واستكثروا في الأقوات والملابس والتأنق فيها، وتوسعة البيوت، واختطاط المدن والأمصار للتحضر، ثم تزيد أحوال الرفه والدعة، فتجىء عوائد الترف البالغة مبالغها في التأنق في علاج القوت، واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعالجة البيوت والصروح وأحكام وضعها في تنجيدها، والانتهاه من الصنائع في الخروج من القوة إلى الفعل إلى نهايتها، فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه ويعالون في صرُحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو أنية أو ماعون، وهؤلاء هم الحضرة " (١٨) .

إن التباين والاختلاف بين كل من العمران البدوي والعمران الحضري لا يستند على أساس اجتماعي/ اقتصادي فقط، ولكنه أيضاً سياسي؛ فالسلطة في

العمران البدوي ذات طابع رئاسي "الرئاسة"، حيث يتبوأ زعيم القبيلة الرئاسة استناداً إلى عوامل أخلاقية ومعنوية كالحكمة والشجاعة، ويكون أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحمائية، لا يتقرد دونهم بشيء. في حين تتحول السلطة في العمران الحضري من الرئاسة إلى الملك عن طريق انفراد أحد زعماء القبيلة بالحكم " الانفراد بالمجد " بحسب الاصطلاح الخلدوني .

إن التحليل الخلدوني لعملية التغيير والتحويل في نمط العمران من العمران البدوي إلى الحضري والقائم على أسس اجتماعية/اقتصادية، وسياسية، أوصله إلى نتيجة مفادها أن المجتمع البدوي ما هو إلا مرحلة أولى في عملية تطور المجتمع الإنساني، في حين يشكل المجتمع الحضري مرحلته العليا، وفي هذا يقول ابن خلدون: " إن البدو أصل للمدن والحضر سابق عليها، وأن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها " (١١) .

### ثالثاً: العلوم والمعارف وموقعها من العمران البشري:

رصد ابن خلدون قضية التمايز بين كل من العمران البدوي والعمران الحضري من أوجه عدة: اجتماعية، اقتصادية، وسياسية، وأرجع ذلك إلى عامل تحصيل المعاش ونوعه . فما موقع العلوم والمعارف في الاجتماع الإنساني ؟ وما نوع المقاربة الخلدونية لقضية المعرفة ؟ وما الانعكاسات التي تتركها مسألة التغيير والتحويل في نمط العمران على العلوم والمعارف؟

#### (أ) العلوم والمعارف في المجتمع البدوي :

هناك علاقة وثيقة بين نمو العمران وتطوره من جهة، وتطور العلوم والمعارف من جهة ثانية، والعكس صحيح؛ حيث ينحسر العمران ويتناقص ويقل العلم. وفي هذا يقول ابن خلدون: " واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها في صدر الإسلام،

واستوت فيها الحضارة، كيف زخرت فيها بحار العلم، وتفننوا في اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون، حتى أربوا على المتقدمين، وفاتوا المتأخرين، ولما تناقص عمرانها وأذعر سكانها، وانطوى ذلك البساط بما عليه على الجملة، وفقد العلم بها " (١١) .

وفي ضوء هذه العلاقة وانطلاقاً منها، عمل ابن خلدون على ما يلي :

أولاً: تصنيف العلوم وبيان مرتبة بعضها بالنسبة لبعض .

ثانياً: رؤيته للعلم والمعارف كمجموعة من النشاطات المنظمة اجتماعياً.

إن أنواع العلوم والمعارف تتحدد في ضوء مستوى العمران ووجوه تحصيل المعاش. فمعاش المجتمع البدوي وحاجاته وعمرانه، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة، أي إن معاش هذا المجتمع مقتصر على ما هو ضروري. ووجوه المعاش في المجتمع البدوي تقتصر على الرعي والفلاحة، وهذا النوع من وجوه النشاط لا يحتاج إلى أعمال الفكر، وذلك لبساطتها وفطريتها . في حين أن الصنائع، وهي لا تظهر إلا في المجتمع الحضري، تصرف فيها الأفكار لأنها مركبة. ولهذا توجد في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو، وفي هذا يقول ابن خلدون: " المعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة، فأما الإمارة فليست بمذهب طبيعي للمعاش، وأما الثلاثة الأخرى فهي وجوه طبيعية للمعاش، والفلاحة متقدمة عليها جميعاً لبساطتها وفطريتها، أما الصنائع فهي ثانيها ومتأخرة عنها لأنها مركبة، وتصرف فيها الأفكار، ولهذا توجد في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو، ثان عنه... " (١٢) .

من خلال ما تقدم نجد أن ابن خلدون يميز بين مستويين من الفكر: الأول يتسم بالبساطة والفطرة ويرتبط بالمجتمع البدوي الأمي. في حين يتميز المستوى الثاني من الفكر بالتركيب، لارتباطه بالصنائع التي تصرف فيها

الأفكار. وفي هذا ينتقل الفكر من المستوى البسيط إلى المستوى المركب مع انتقال المجتمع وتحوله من المجتمع البدوي إلى المجتمع الحضري .

ومن هنا فالفكر في المفهوم الخلدوني ليس في معناه الفلسفي، بل هو مجموع النشاطات الاجتماعية التي تهيئ المعاش وتنتج الحضارة. فالإنسان كما يشير ابن خلدون يتميز عن الحيوان بالفكر الذي يهتدى به لتحصيل معاشه وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصناعات التي لا تظهر إلا في المجتمع الحضري<sup>(١١)</sup> .

ويتميز المجتمع البدوي بالبساطة والفطرة وغياب التفكير المركب، وسيطرة الطرق الحسية السمعية منها والبصرية كأحدى طرق المعرفة، وعلى أساس المدارك الحسية يقوم نوعان من العلوم: شرعية مبنية على الأمر والسمع، وعلوم كشفية مبنية على الرؤية بأشكالها المختلفة<sup>(١٢)</sup> .

وتدخل في إطار العلوم الشرعية علوم القرآن والحديث والفقه وعلم الكلام، في حين تكون ميادين العلوم الكشفية السحر والتنجيم والعرافة .

وهذا النوع من العلوم يعبر عن مستوى تطور العمران في المجتمع البدوي، ويعكس آليات تفكيره وطرق المعرفة والإدراك المسيطرة عليه. ومتى ما حدث تحول في العمران ، فإن تلك العلوم تخضع للتطور وتظهر علوم أخرى جديدة تعبر عن التحولات التي طرأت في مستوى العمران.

صحيح أن ابن خلدون يستهل إحصاءه للعلوم قائلاً: " إن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وعلماً هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدى إليه بفكره، وصنف نقلى يأخذه عن واضعه"<sup>(١٣)</sup> . إلا أن هذا القول لا ينبغي أن يعنى أن هذه العلوم وجدت دائماً وفي كل مكان ، فكما أن هناك علوماً ترتبط بمستوى تطور العمران ووجوه تحصيل المعاش



فى المجتمع البدوى، فإن هناك علوماً لا يمكن أن تظهر إلا فى المجتمع الحضرى وتعبّر عن التحوّلات التى طرأت على ذلك المجتمع .

### (ب) العمران الحضرى وتطور العلوم والمعارف :

يرتبط تطور العلوم عند ابن خلدون بشكل وثيق بتطور العمران، وفى هذا يشير ابن خلدون إلى أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعمّم الحضارة والعكس صحيح. ويضرب ابن خلدون لذلك أمثلة بالقيروان حاضرة المغرب، ليؤكد على صحة استنتاجه النظرى المتعلق بالعلاقة الوثيقة التى تربط بشكل وثيق بين تطور العمران، وتطور العلوم. وفى هذا يقول: "حين كان العمران فيها مستجداً كانت أسواق العلوم نافقة وبحوره زاخرة، كما يورد مثلاً آخر حول ضعف العلم وانحساره بانحسار العمران وتناقصه، حيث يقول: " أما أهل الأندلس فذهبت عنايتهم بالعلوم، لتناقص عمران المسلمين بها منذ مائتين من السنين، ولم يبق رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب، وأما الفقه بينهم فرسم خلوا، وأثر بعد عين، وأما العقلية فلا أثر ولا عين " (٢٥) .

إن العقلية - أى العلوم العقلية - ذات صلة وثيقة بالعمران الحضرى، وحيث يتناقص العمران وينحسر فلا أثر ولا عين لتلك العلوم. لذلك ازدهرت العلوم العقلية عند المجتمعات الحضارية، وفى هذا يشير ابن خلدون إلى أن "أكثر من عنى بها فى الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان فى الدولة قبل الإسلام: فارس والروم، فكانت أسواق العلوم نافقة لديهم، على ما بلغنا لما كان العمران موفوراً فيهم" (٢٦) .

وانطلاقاً من ذلك يقوم ابن خلدون بإحصاء للعلوم فى المجتمع الحضرى، وهذه العلوم تشتمل على العلوم العقلية والعلوم الشرعية والعلوم الكشفية.

وإذا كان المجتمع البدوى قد شهد ظهور كل من العلوم الشرعية والعلوم الكشفية وتبلورهما، فإن هذه العلوم تتأثر بالتحوّلات التى يشهدها المجتمع

الحضري. وإذا كانت عملية إدراك العلوم الشرعية في المجتمع البدوي الأُمي تستند على طرق المعرفة الحسية من سمع وحفظ وتلاوة، فإن ظهور التدوين في المجتمع الحضري أدى إلى إدماج علوم جديدة للعلوم الشرعية<sup>(٣١)</sup>، مما ساعد على أن تصبح العلوم الشرعية في المجتمع الحضري أكثر تنظيماً وتأصيلاً وقدرة على تقديم الحلول والإجابات لكل ما يعتمل من قضايا وإشكالات يفرزها الواقع الاجتماعي للمجتمع الحضري .

لقد توقعنا في الفقرة (أ) أمام مفهوم ابن خلدون للفكر الذي يرى فيه مجموعة من النشاطات الاجتماعية التي تهيئ المعاش وتنتج الحضارة. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصنائع .

والفكر لا يكون منتجاً للعلوم والصنائع إلا في المجتمع الحضري . ففي هذا المجتمع يصبح العلم مجموعة من المعارف المنظمة اجتماعياً، وتظهر فئة العلماء كفئة اجتماعية منتجة للعلم، ويصبح العلم وسيلة اجتماعية لطلب المعاش ، كما تتوفر أدوات إنتاج ذلك العلم، المتمثلة بالكتب والمدارس وتؤسس التقاليد العلمية ( سند تعليم العلم ) . ولا يكون متاحاً كل هذا إلا في المجتمع الحضري .

ومن هنا فإن الأساس الاجتماعي للعلم والمعرفة لا يمكنه أن يوجد إلا في ذلك المجتمع .

#### **رابعاً : الرؤية والمعالجة الخلدونية للمعرفة وموقعها في الفكر الإنساني :**

انطلق ابن خلدون في رؤيته لقضية المعرفة ومعالجته لها باعتبارها إحدى ظواهر الاجتماع الإنساني من جهة، وإحدى العناصر الأساسية لنظرية العمران من جهة ثانية. فما أوجه الاختلاف بين تلك الرؤية، والنظرة المستندة

إلى الموروث الفلسفي اليوناني؟ وما طبيعة الطرح النظري الجديد الذي أضافه ابن خلدون لقضية المعرفة وموقعه في الفكر الإنساني؟

(أ) المعرفة وموقعها في الموروث الفلسفي اليوناني :

احتلت قضية المعرفة في الفلسفة اليونانية حيزاً كبيراً من اهتمام الفلاسفة اليونان، حيث شكلت مبحثاً رئيساً من مباحثها وهو (مبحث المعرفة).

وكانت التساؤلات التي تثيرها قضية المعرفة تدور حول إمكان المعرفة وحدودها ومصادرها وطبيعتها .

إن أسئلة المعرفة التي عملت الفلسفة اليونانية على إثارتها، تجاوزت حدود الواقع والعالم الطبيعي، وارتفعت إلى ما بعد الطبيعة، لتبحث في الوجود كله، علله ومبادئه الأولى<sup>(٧٨)</sup>، وفي مسائل أكثر ابتعاداً عن الواقع كوجود الله وخلود النفس وغيرها. فظهرت النظريات الفلسفية المختلفة، على سبيل المثال لا الحصر: " نظرية الهيبولي الأزلية لأرسطو"، "ونظرية المثل الأفلاطونية" و" نظرية الفيض الأفلاطونية المحدثة " .

وحيث حاولت الفلسفة اليونانية توظيف المعرفة لتفسير الواقع الاجتماعي وتغييره، فإن مفهومها للمعرفة ولدورها انعكس بشكل مباشر في قضية تقديمها للحلول وتصورها لنوع النظام الاجتماعي الذي تريد بناءه. فكانت تصور الأشياء بأنها مرهونة بالقوى التي تدركها؛ بمعنى أن الموجودات المحسوسة مجرد أفكار في عقولنا .

وفي المنظور الفلسفي اليوناني فإن النظم الاجتماعية لا تبلور أي نوع من أنواع المعارف، بل العكس هو الصحيح. أي إن المعرفة هي التي تكون النظم الاجتماعية، وترى أفكار الإنسان ما هي سوى تمثيل للموجودات المحسوسة أو

انعكاس لها. أى إنها مجموعة أحاسيس تمثل الأفكار الاجتماعية التى بدورها تؤثر على أحداث النظم الاجتماعية أو تشكيلها.<sup>(٢١)</sup>

وهكذا كانت محاولات الفلاسفة اليونان لتغيير نظم البناء الاجتماعى تمثل محاولات معرفية مثالية، أى صورة لمجتمع خيالى لا وجود له إلا فى أحاسيس هؤلاء الفلاسفة وأفكارهم. إنها محاولة لتفسير أوضاع المجتمع وتغييرها بواسطة أفكار مثالية.

ولقد تجسدت تلك الأفكار فى المحاولات الفكرية لأفلاطون (الجمهورية) وأرسطو (الوسط الذهبى).

(ب) أوجه التمايز فى الرؤية والمعالجة الخلدونية لقضية العلم والمعرفة:

إن جوهر الاختلاف والتمايز فى الرؤية والمعالجة الخلدونية لقضية العلم والمعرفة، يتجسد فى بادئ الأمر فى النقطة العلمية التى حققها الفكر الخلدونى فى حقل الفكر الاجتماعى، وذلك فى تأسيسه لعلم العمران وتحديد موضوع ذلك العلم، أو حقله المعرفى، وهو الاجتماع الإنسانى. وقيل ذلك كله بناؤه نظرية فى العمران البشرى.

فى حين لم يرق الفكر اليونانى ممثلاً بأرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة القرون الوسطى، فى أثناء مقاربتهم للظواهر الاجتماعية بما فيها العلوم والمعارف، انطلاقاً من نظرية اجتماعية لها مفاهيمها، وقوانينها التى من خلالها تؤسس معرفتها الموضوعية بالمجتمع وبظواهره ونظمه .

ومن هنا تميزت النظرية الخلدونية فى العمران البشرى بواقعيته التى اختلفت عن التصورات اليوتوبية حول المجتمع، والتى قدمتها الفلسفة اليونانية. وأسست بذلك نظرية ابن خلدون الاجتماعية لقطيعة كاملة مع التراث الفلسفى للنظرية الغربية، وبخاصة فى مرحلتها اليونانية<sup>(٢٢)</sup>.

إن المجتمع هو العنصر المحرك الأولى، أى إنه الشرارة التى تولد الحركة فى آلة المعرفة. ذلك ما توصل إليه ابن خلدون، ومن هنا جاء تقسيمه للعلوم والمعارف انطلاقاً من تأثير المجتمع أو مستوى العمران على قضية تطور المعرفة والعلوم. فالعلوم الشرعية والعلوم الكشفية تظهر فى المجتمع البدوى الأسمى، فى حين أن العلوم العقلية لا تظهر إلا فى المجتمع الحضري. فى الوقت نفسه تتعرض العلوم الكشفية للضعف فى إطار المجتمع الحضري، نظراً لحاجة المجتمع لعلوم ومعارف تتسجم واحتياجاته العملية من صنائع وغيره، ولعقل تجريبي خلاق ومكتشف بعيداً عن عقل المجتمع البدوى الأسمى الغارق فى السحر والتنجيم والعرافة.

إن العلم والمعرفة انطلاقاً تحت تأثير الفلسفة اليونانية نحو الأفلاك العليا من الفكر، وأصبح موضوعهما المعرفي تفسير عالم الوجود وما وراء الوجود، بدلاً من تفسير الوجود الحقيقي وتحليله، الذى هو الوجود الاجتماعي للبشر وقضاياها وظواهره ونظمه. وذلك ما جسده ابن خلدون فى توظيفه للعقل والمعرفة فى اكتشاف القوانين التى تتحكم فى حركة المجتمعات والعمران بظواهره المختلفة، وفى مقدمتها العلوم والمعارف .

لقد بسط ابن خلدون جسراً بين المعرفة والمجتمع، ووجد أن هذا الأخير له من التأثير فى العمل على تطوير المعرفة وازدهارها من جهة، أو تعريضها للضعف والاضمحلال من جهة أخرى. ومن هنا توصل إلى نتيجة مفادها أن أساس المعرفة والعلم اجتماعي بالدرجة الأولى، فقدم تفسيراً للمعرفة ودورها وأحوالها من خلال المجتمع. فى حين لم تستطع الفلسفة اليونانية ولا حتى فلسفة القرون الوسطى البحث عن تفسير للمعرفة إلا من خلال المعرفة بحد ذاتها، الأمر الذى يجعلنا نستنتج أن الرؤية والمعالجة الخلدونية لقضية العلم والمعرفة تميزتاً بأصالتها وعقلانيتهما، وعكست مستوى النظر إلى المعرفة بحدود ذلك العصر ومستوى نسقه المعرفي والاجتماعي.

## النتائج والتوصيات

- ١- بينت الدراسة أن التصنيف الخلدوني للعلوم ومرتبته بعضها بالنسبة لبعض، يتحدد في ضوء مستوى تطور العمران بدوياً كان أو حضرياً.
  - ٢- أوضحت الدراسة أن العلم والمعرفة - وفقاً للرؤية الخلدونية- عبارة عن مجموعة من النشاطات المنظمة اجتماعياً.
  - ٣- أظهرت الدراسة أن المعالجة الخلدونية لقضية المعرفة أسست لقطيعة كاملة مع التراث الفلسفي للنظريات الغربية، وبخاصة في مرحلتها اليونانية.
  - ٤- بينت الدراسة عمق التحليل والتشخيص اللذين قدمهما ابن خلدون لقضية العلم والمعرفة باعتبارهما ظاهرة من ظواهر المجتمع الإنساني وعنصراً أساسياً من عناصر نظرية العمران البشري.
  - ٥- كشفت الدراسة أن هناك طرحاً نظرياً جديداً أضافه ابن خلدون لقضية المعرفة على مستوى الفكر الإنساني .
  - ٦- أوضحت الدراسة استناد ابن خلدون إلى دور النظم الاجتماعية وأنماطها المختلفة في التأثير على مسألة نشأة العلوم والمعارف وتطورهما .
- وفي الختام توصي الدراسة بضرورة استكمال البحث في موضوع التحليل والتشخيص الخلدوني لقضية المعرفة، اللذين لا يزالان في حاجة إلى المزيد من البحث والتحليل. كما أن المفاهيم الخلدونية لا زالت تمتلك إمكانات تفسيرية في تحليل وقائع المجتمع العربي الإسلامي وأحداثه وظواهره ماضياً وحاضراً .

\* \* \* \*

## المراجع

- ١- السيد عبد العاطى السيد: علم اجتماع المعرفة. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ٢٠٠٠م، ص ١٨.
- ٢- فردريك معنوق: المعرفة والمجتمع. بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٠.
- ٣- برصد عزيز العظمة فى مؤلفه ما يقارب من ثمانمائة وخمسين مادة ما بين رسائل أكاديمية وكتاب ومقالة، بمختلف اللغات .
- Aziz al-Azama: Ibn Khaldun modern scholarship. London 1981 P.227-318.
- ٤- فتحى أبو العينين: التمايز الاجتماعى فى العمران البشرى. مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية. جامعة قطر - العدد (٢). ١٩٩٠، ص ٣٠٢ .
- ٥- مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢١ .
- ٦- مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية ... مصدر سابق، ص ٢٤ .
- ٧- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً - تحقيق محمد بن تاويت الطنجى. لجنة التأليف والنشر - القاهرة، ص ٢٤٥.
- ٨- عبد القادر جغلول: الإشكاليات التاريخية فى علم الاجتماع السياسى عند ابن خلدون. الجزائر ١٩٨٥، ص ٩٦.
- ٩- محمود إسماعيل: دراسات فى الفكر والتاريخ الإسلامى. سينا للنشر القاهرة ١٩٩٤، ص ٦٥.
- ١٠- المقدمة. طبعة بيروت ١٩٩٠، ص ٣٢.
- ١١- مهدى عامل: فى علمية الفكر الخلدونى. بيروت. ١٩٩٠، ص ٤٠.



- ١٢- المقدمة: ص ٤٢-٤٣.
- ١٣- مصطفى الشكعة: مصدر سابق، ص ٥٤.
- ١٤- علي أومليل: التراث والتجاور. المركز الثقافي المغربي. ١٩٩٠، ص ٦٢.
- ١٥- المقدمة: ص ٤٣.
- ١٦- المقدمة: ص ٣٨.
- ١٧- المقدمة: ص ١٢٠.
- ١٨- المقدمة: ص ١٢٠.
- ١٩- المقدمة: ص ١١٢.
- ٢٠- المقدمة: ص ٤٣٤.
- ٢١- المقدمة: ص ٣٨٣.
- ٢٢- علي أومليل: الخطاب التاريخي. دراسة لمنهجية ابن خلدون. بيروت. بدون تاريخ نشر، ص ٢٠٨.
- ٢٣- جميل أحمد عون المذحجي: ابن خلدون فيلسوفاً للتاريخ. جامعة عدن للطباعة والنشر. مجلة أبحاث جامعية. العدد ١ يوليو- ديسمبر دار عدن - ٢٠٠٢م، ص ٧٩.
- ٢٤- المقدمة: ص ٤٣٦.
- ٢٥- المقدمة: ص ٤٣٢.
- ٢٦- المقدمة: ص ٤٣٤.
- ٢٧- جميل المذحجي: ابن خلدون فيلسوفاً للتاريخ...مصدر سابق، ص ٨٣.

Bottomore t.b. Elites and Society, Penguin bock . new York - ٢٨  
. 1979 P 73.

٢٩- معن خليل عمر: علم اجتماع المعرفة . دار الأمل، الأردن- عمان . ١٩٩٣م،  
ص ٦٥،٦٦ .

٣٠- على ليلة: تنظير ابن خلدون على خريطة التنظير السيسولوجي المعاصر .  
ورقة بحثية مقدمة إلى ندوة: عبد الرحمن ابن خلدون قراءة معرفية ومنهجية .  
جامعة عين شمس - ٦/٥ أغسطس - ٢٠٠٠م، ص (٣) .

